التجـديـد

التعريف المعجمي:

رغم أن الجديد والتجديد واضح المعنى والدلالة التي تتبادر إلى أذهان القراء ويتضح المقصود منها بلا لبس في كثير من الأحيان إلا أنه يحسن أن نلم بتعريف سهل ميسر للجديد والتجديد وما المراد منهما في ما يرد الحديث عنه في هذا المقال تقول : معاجم اللغة جدده واستجده أي صييرة جديداً، والجديد ما لا عهد لك به، وجدد الشيء والأمر أعاده، ويقال: جدد العهد والوضوء ونحو ذلك. والجدة نقيض البلى، ويقال شيء جديد وجدَّ شيء أي صار جديداً. ومنها حلول شيء مكان آخر مثال: بلي ببيت فلان ثم أَجَدَّ بيتـًا. قال لبيد بن بين ربيعة العامري :

تحمـــل أهلهـــا، وأجـــدَّ فيهـــا نعـــاج الصـــيف أخبيـــة الظـــلال

ومن هذا يتحدد في الورقات التالية الحديث عن الجديد والتجديد الذي سنحاوله فيما يمكن أن يكون من روح الإسلامي ومعناه وما يدل على ماضيه وحاضره وما الجديد فيه، وما كان في ماضيه ويلزم تجديده في الحاضر.

يتضح أن المقصود التجديد معالجة القديم من الأمر الذي مرَّ عليه الزمن وأحدث فيه ما يحدث من متغيرات وما يحتاجه التغيير والقدم من معاودة النظر سواء كان شيئـًا ماديـًا أو معنويـًا، وحاجته مع مرور الأيام وتغير الحالات إلى التجديد والتغير والتحول وهذه هي طبيعة الأشياء ومعناها وقيمتها في ما يجد وما يجدد وإذا أخذنا بالمعنى المباشر للتجديد الذي هو إعادة النظر في الأمر القديم وتجديد ما أصابه نفهم أهمية التجديد في كل شؤون الحياة من القضايا الفكرية والعقلية والروحية حيث الدورة مع الزمن والتحول في الفكر ومطالب الحاجات وضرورات الحياة ومتغيرات الأحوال.

www.mtenback.com

ولأن هذا المقال يتوجه بمجمله إلى الإسلام وتعاليمه وممارسة المسلمين له ومعارفهم التي شكلها أصل الإسلام الأول من نصوص تراثية وسنن نبوية واجتهادات بشرية كانت في عهده الأول جديدة طرية سهلة مفهومة لدى عامة المسلمين وإن لم ينالوا حظًا من التعليم والتفكير، فقد جاء في الأثر أن رجلاً قدم المدينة ليسأل عن أمر من أمر دينه فأخبر النبي أنه جاء سائلاً فأقيمت الصلاة فصلى النبي في الناس وقرأ " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره".[1] فاكتفى الرجل بنص الآية الذي سمع ولم يعد إلى السؤال حتى سأل النبي عنه فقال أين السائل فأجاب أنه سمع الآية وكفته جوابًا لسؤاله هذا مثال سهل لفهم الأولين لتعاليم الإسلام كما يريد الله منها، ولم يغمض عليهم معناها المباشر ولكن ما لبث الإسلام أن اتسعت دائرته وأصبح المسلمون يختلفون في معانيه ودلالاته والمقاصد التي يرجى إليها مما جعل النص يفسر على أكثر من وجه للتفسير.

وهذا يقتضي التجديد في الأفكار التي يتبنى مدلولاتها جملة من الناس أو قطاع منهم مهم حين يشعرون أن مورثهم الذي ورثوه وتتابعوا عليه قرونًا طويلة وحقبًا ممتدة قد أصابه البلى أو قصر به المسير عن أداء وظيفته التي تطلب منه وكذلك الزمن الذي يحتاج فيه أهل الموروث الديني أو الاجتماعي أو حتى السياسي والثقافي البحث عن ما يجد في حياتهم من الأمور والمعضلات التي تواجههم.

متى يكون التجديد :

التجديد حاجة طبيعة لكل شيء يعمل الزمن عمله في تقادمه ووظيفته الأساسية التي يقوم بها في جدته حيث يصيب كل شرع في الدنيا التغير والتطوير فيكون البحث عن تجديد

(١)

www.mtenback.com

الشيء المتقادم أو تطويره ضرورة ليتلافى ما أحدثه مرور الزمن وتعاقب الحقب حتى يستجيب لمتغيرات الحياة ويتوافق بحده الأدنى مع الحاضر الذي تدعو الحاجة إليه فيصبح التجديد للموروث هو البديل المناسب والممكن للاحتفاظ به لكن بعد تعديله وتجديد مضامينه مع الحاجات التي يريدون أن تسود حياتهم والاحتفاظ بمظلة الموروث وبغطاء ملائم يؤدي دور الحاضر بصورة مقبولة ويتضمن أسس الماضي أو الموروث فيكون التجديد هو الحل الذي يلجأ إليه أصحاب الموروث محاولين أن يصلح التجديد موروثهم ما يبقيه يؤدي الوظيفة الزمنية المعاصرة في بنائه الأساسي وهيكله المحفوظ.

ومنذ القرن الأول صحب التجديد تعاملات المسلمين وبشروا به إذ جاء حديث أن الله يبعث على راس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها.

ولا يكون التجديد إلا مع النظر والتأمل في أصل الإسلام وسماحته وأن الناس مدعوون للنظر والتجديد ومعاودة الإجتهاد وأن صهر القديم وتأطيره وصهر القديم وتأطيره هو باب يدخل منه استمرار ونماء لمقاصد الإسلام وغاياته الكبرى التي يهدف إليها المصلحون وإلى العمل بها والانقطاع عن ما يقلل من أهمية القبول عندما يقاس إلى حاجات الحاضر وأن عدل الإسلام وسماحته وقابليته للتجديد ومواكبة العصر يوجب حقا مشروعاً يعززه فضل التغيير الذي يجنب الإسلام أسباب للضعف أو التخلى عن رسالته العامة للدنيا في جانب الحياة وسعادة أهلها وفي الآخرة لمآل الناس إليها في يقينهم ومعتقداتهم.

والتجديد لروح الإسلام يعد وقوديًا داخلياً لحركته المستمرة حتى لا تقف عوائق التفسير في طريقها حين تكون القيادات الإسلامية والفكرية مدركة لوظيفة التجديد. ولا يختلف المسلمون على ضرورة التجديد في كل مجالات الحياة حتى لا يغلب الطاريء الجديد القديم إذا عجز أهله عن العمل على تجديده، وقد قدر أوائل المسلمين التجديد في

www.mtenback.com

كل العصور منذ أيام الإسلام الأولى ولم تقف قدراتهم على ثابت النصوص بل عملوا على فهم متغيرات الأحوال ولا شك أن جوهر الإسلام هو المعرفة وهي حادثة ومستمرة ومتطورة. وما كان في زمن معروفًا أو مقبولاً أو متفقًا عليه أو معمولاً به قد يكون في زمن آخر غير صالح ولا مقبول يُحدث الزمن فيه ما يجعله لا يفي بالغرض من إعمار الأرض ومصالح الناس التي كانت هي رسالة الإسلام وقانونه الثابت ، ومصالح الناس كثيرة متجددة لا يحد جدتها حال من الأحوال إلا تقدير الناس واجتهادهم مع ملاحظة اختلاف الأماكن والبيئات والفواصل المكانية والزمانية والتباعد الجغرافي أيضًا كل تلك الاعتبارات تؤخذ في حسبان التجديد للموروث الديني باعتبار المصالح المرسلة التي ليس فيها حكم ولا نص ثابت ولعل أهم المصالح المرسلة هو ما يواجهه المسلمون اليوم من قضايا محورية كالتعامل مع الأمم والشعوب غير المسلمة وموقف الإسلام من هذه المعاملات حيث إن في الإرث الإسلامي والاجتهاد والفقهي مدونات ضخمة عن المعاملات والتعاملات يختلف الحكم فيها من فقيه إلى آخر ومن رأي إلى أراء في زمن كانت تحكم النظرية الفقية الرؤية الآحادية أي أن الفقيه يعد رؤيته وفقهه لحاضر عصره ومجتمعه منعزلاً عن غيره من المجتمعات .

أما الحاضر فمختلف عن ما مضى من عصور الإسلام الأولى إذ إن المجتمعات والأمم أصبح التواصل بينها قويًا وضروريًا ولا يمكن الانعزال عن المجتمعات البشرية في الثقافة والإعلام والتواصل المستمر حيث الفضاء المفتوح لتبادل الثقافات وتحاورها واهتمام المثقفين من جميع الأديان والثقافات في ما يعد من الاجتماع الإنساني ويظهر المشاركة الايجابية بين الموروثات الإنسانية في الإديان والقيم والتعاون على الحق وقد دعا الإسلام إلى التعاون في صريح النص ونهى عن التعاون على الباطل ((ولا يجرمنكم

www.mtenback.com

شئنان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" [1].

هذه لآية دعوة صريحة واضحة إلى التعاون بين مختلف الأديان والثقافات والتجاوز عن أخطاء المعارضين وحتى المحاربين والمقاتلين فإن القرآن يطلب من المسلمين العدل والعفو حتى مع عدوان المعتدين وظلم الظالمين إذ العدل هو الغاية والقصد الأعلى الذي يؤمر به المسلم ويعمل به والعدل قيمة أخلاقية وإنسانية عالية المقصود وقد أمر القرآن بالعدل حتى مع الأعداء والمقاتلين فضلاً عن المسالمين.

لماذا التجديد :

التجديد عمل يطلب لذاته ودوام الحال من المحال كما تقول الأمثال وكل جديد سيناله البلى ويحتاج إلى تجديد ما بلي منه سواء كان هذا الشيء جماداً أو غير ذلك والرؤى والأفكار والتعاليم وكل ما هو نظري هو أسرع حاجة إلى التجديد فيه والتعديل عليه والتغيير الذي يصيبه ويحولوه إلى شيء يحتاج التطور والنظر. ولا يخلو عمل من حاجة إلى التجديد فيه، وهو عمل إجابي يفيد منه الاستمرار والقوة وهذا العنوان الذي اختارته موسوعة التسامح والوسطية للكتابة فيه مدخلاً من مداخلها الكثيرة يتقاطع مع ما يعرف ثقافياً في الوقت الحاضر بالحداثة والتحديث، وفي هذا العنوان ملئت الصحائف ونشرت مئات الكتب عن الحداثة وجدليتها التي يصعب جمع أطرافها في مقال محدود المساحة مثل هذا المقال فالحداثة هي في واقع الحال شيء من التجديد بل هي التجديد ذاته ولهذا فقد يلزم أن يلم البحث في رؤى حداثية ومعرفية ويجعلها بعض مصادره ويعتمد عليها في توضيح مكان التجديد وأهميته لما ستحاوله هذه الفقرة. ولعله من نافلة القول أن

(١) سورة المائدة الآية ٢ .

www.mtenback.com

نؤكد أن الإسلام منذ أيامه الأولى قد رافقه التحديث والتجديد ولم يتوقف البحث أو يجمد النص على حقبة من حقب الإسلام ولا مرحلة من مراحله في كل تاريخه الطويل ودعت إلى التجديد أو ما نسميه الاجتهاد نصوص مبكرة جداً في تاريخ الإسلام ومنها الحديث[1] ((إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فأخطأ فله أجر، كما روي أن الرسول أرسل معاذاً إلى اليمن قاضياً وفقال له : كيف تقضي إذا عرض لك قضاء قال : أقضي بكتاب الله قال فإن لم تجد في كتاب الله قال : بسنة رسول الله ، قال فإن لم تجد بسنة رسول الله ولا في كتاب الله قال أجتهد رأي ولا آلو فقال رسول الله: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله)) وهذا نوع من التجديد واستعمال الرأي والاستنتاج عندما لا يكون لدى الإنسان نص يتبعه أو يطبقه ومنذ ذلك التاريخ ملئت بطون الكتب بضروب من صور التجديد والاجتهاد لما يتطلبه الحال أو العصر الذي يدعو إلى التجديد في الأحكام والأعراف والتقاليد الاجتماعية سواء تلك التي تخص ما يتعلق في التشريع أو الحياة العامة والصلات الاجتماعية والعلاقات الإنسانية التي لا ينقطع عنها المجتمع. والتغير في الزمن والأحوال والظروف التي تجد في حياة الأمم والشعوب مجال آخر يوجب على الناس التعاون مهما كانت صلاتهم وعلاقاتهم، ولا أظن أن هناك حاجة للتجديد في أي عصر من عصور التاريخ الإسلامي مثل ما تكون الحاجة ماسة للتجديد في هذا العصر فلم تعد دائرة الإسلام دائرة محلية ولا دولة الإسلام دولة منعزلة ولا الشعوب التي تؤمن بتعاليم الإسلام مجتمعة في مكان واحد ولا في دولة واحدة، وإنما أصبح العالم دولة ومدينة وأصبح سكانه يرتبط بعضهم ببعض من كل الأديان والملل والنحل ويتقاطع المسلمون الذين يتبعون تعاليم الإسلام مع غيرهم ممن يتعاش معهم من غير المسلمين،

(١) التشريع وسن القوانين في الدولة الإسلامية " دراسة تحليلية" ص١٠ إعداد : محمد أحمد مفتى، وسامي صالح الوكيل مركز البحوث في كلة العلوم الإدارية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

www.mtenback.com

وهنا تكون تعاليم الإسلام بالضرورة متصلة بغير المسلمين ومؤثرة عليهم ومع من يتعامل معهم من غير نحلتهم فلا يخلو المسلمون اليوم بعامة أمرهم من التعامل مع غير المسلمين في البلدان التي تجمعهم في السكنى وتجمعهم في العمل وقد تجمعهم مع من يستطيع التعايش معهم، ومن له رأي فيهم غير ما يراه المسلمون في أنفسهم، والناس يتعايشون في المعروف ويتعاملون في الحسنى وقد سبق في الإسلام احترام هذا الجانب الإنساني الإسلامي في الحديث المنسوب الأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين قال في علاقة المسلم بغيره مبيناً حق كل منهما على الآخر ومصنف الناس كما هم في خلق الله قائلاً : الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق" الخطاب كان موجهاً لأحد عماله الذين يتولون شؤون عامة للناس فيهم المسلمون وفيهم غير المسلمين فكانت الوصية بالفريقين خيراً مشيرة إلى الرابطة بينهم وهو صفة الخلق إن لم تحقق صفة الدين. والمعارف العامة والاعتقادات الراسخة هي موضع الخلاف بين الناس وموضع التوافق أو التقبل فيما يعرف بين الأديان بالتسامح تجاه الآخر المختلف ديناً أو رأياً أو موقفاً عارضاً، وفي الآراء والمواقف ما هو خير مقبول وفيها ما هو رديء مرذول وللناس خياراتهم بين هذه المراتب من الخيارات كما قال ملتون[1] : لو لم يكن الرديء موجوداً لما كان للبشر أي فضل باختيار الجيد .. إذ لا يمكن للجيد والرديء إلا أن يتعايشا فلا معنى لأي من هذين المفهومين دون الآخر إن قسمة العالم إلى قسمين، هي في صميم فكر المتعصب الخاص، فالمتعصب هو ذاته "جيد" بينما – يجري إضفاء الشر على الآخر ، العدو الذي يرغم على خوض معركة ثابتة ودائمة معه لكي يصون نفسه".

(١) سيكولوجية التعصب. أندرية هاينال وآخرون. خليل أحمد خليل دار اساقي الطبعة الأولى ١٩٩٠م الصفحة ٥٦ .

www.mtenback.com

هذه المفارقة التي أشار إليها ملتون هي حقيقة الواقع البشري ولاسيما في تناول اختلاف الأديان وتعاليمها عند من يلتزم بها الذي يرى أنه على حق فيما يلتزم به بين ما المقابل له على باطل في كل حال، وهنا يكون معنى التجديد في مدارك الناس وأهمية التعايش بينهم مع ما في أديانهم ومعتقداتهم من ضروب التفاوت والاختلاف.

وبهذا تتأكد حاجتنا للتجديد بسبب كون التجديد ضرورياً للتعامل مع الوقائع والحوادث التي تتجدد في كل زمان ومكان والحوارات التي تدفع العلماء والمفكرين إلى البحث عن القواسم المشتركة بين الأديان السماوية لتخفيف جفاء التعصب والغلو عند عامة الناس الذين لا يرتكنون في آرائهم إلى وعي فقهي ولا رؤية علمية تقدر الظروف والأحوال التي يكون عليها حال الناس ومصالحهم وتبحث عن ملتقى المصالح العامة المندوب إليها في الإسلام أو حتى في الأديان الأخرى، وهي مصالح قائمة الحاجة إليها ومندوب البحث عنها في هذا الوقت لاسيما لدى المسلمين وما يشوب علائقهم من شوائب الماضي المنعزل حين كانت الدولة الدينية أو حتى الدولة القطرية معتبرة وقائمة بذاتها مستقلة عن غيرها. وبهذا السياق التجديدي يحسن أن نلم إلماماً مناسباً لما كان عليه سلف الأمة الأولون من تقدير للواقع الذي يعيشون فيه وما يتطلبه من حاجات التجديد التي دعت مصالح مشتركة قدروها حق قدرها وأدركوا أهمية التجديد الذي يواكب الحاجة ويسند غرض المجدد الذي يرنو إليه ويحتاجه حين يضع المصلحة العامة أو ما يسمى المسائل المرسلة التي يجوز فيها التجديد نصب عينيه ومراعاة لمصالح المجتمع ومنافعه، والإسلام في كل عصوره التاريخية تعامل مع المصالح المرسلة بتوسع ووضع الكثير من قضايا التجديد في هذا الباب، باب المصالح المرسلة، ولا شك أن ما تدعو له حاجة المسلمين اليوم والناس عامة هو تفعيل وتجديد العمل بفقه المصالح المرسلة والتوسع في هذا الباب حيث واقع الناس كافة هو التعامل والتواصل في كل القارات ولا يمكن أن يعيش

www.mtenback.com

المسلمون اليوم مع الأمم إلا أن يكون لهم أي لعلمائهم قدرة على التجديد في مجالات الحياة العامة والمصالح المشتركة، وأن يوطن الراي الفقهي ويجدد في كل ما يخص شؤون الحياة وما يتعلق في تعامل المسلمين بينهم وتعاملهم مع غيرهم وقدرتهم على تحديد المنطلقات التي تضمن حضورهم ثقافياً وفكرياً وحضارياً مع أمم الأرض التي يعيشون عليها سواء غلب فيها أمر المسلمين أي كان المسلمون أكثرية فيها أو غلب فيها غيرهم وكانوا ملزمين بالحياة معهم والتعامل بقوانينهم وشرائعهم التي يشرعونها لمصالح العامة والخاصة.

وسنورد في هذا المجال أمثلة من التجديد نقلاً بتصرف عن كتاب " العقل والشريعة" حين يرى ما هو معلوم للجميع في تاريخ الصحابة الذين عاصروا الرسول (ص) بالمدينة أو مكة أنهم لم يكونوا جامدين في فهم النص بل كانوا يذهبون في أحكامهم الشرعية إلى تخصيص العام وعدم العمل بظاهره محققين في ذلك غاية المشرع، وروح الشريعة لا حرفيتها مستندين في ذلك إلى أن الأحكام تدور مع علتها وجوداً وعدماً حيث يسود إعمال النظر والعقل والانفتاح على عقول الآخرين دون ارتهان إلا للعقل بحدود طاقته المعرفية النسبية فإننا نظر بتقدير كبير إلى ما حفل به تاريخ الصحابة الأوائل من أفعال وأحكام ومنهم الخليفة عمر بن الخطاب الذي له جرأة في الاجتهاد الذي كان يخالف أحياناً ظاهر النص، كان عمر حريصاً على جعل الحكم ملائما لأحوال المسلمين دون مخالفته في الوقت نفسه لروح الإسلام وتعاليم الرسول : فإذا ورد نص لم يبق حاجة للمسلمين في تطبيقه لم يطبقه ، وإذا اقتضت[1] أحوال المسلمين تأويل النص أوله، بمعنى أنه كان يجتهد ويجدد في تعريف المصلحة أو الغاية التي لأجلها شرعت الآية أو جاء الحديث ثم يسترشد

(١) تم النقل بتصرف من كتاب : العقل والشريعة : ص٩٢ وما بعدها مهدي فضل الله. دار الطليعة الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

www.mtenback.com

بتلك الغاية في حكمه وهو أقرب ما يسمى اليوم، والاسترشاد: بروح القانون لا بحرفيته، ولعل عمر كان أول من عمل على سد الذرائع المفضية إلى مفسدة، بمنعه الزواج زواج المحاربين من الكتابيات أثناء الحرب أو الفتح مما قد يترتب بذلك من مضار أو شر على المسلمين وأول من حرم التمتع بالنساء أثناء الحج خوفاً من انتهاك حرمات الإحرام، كما أنه أول من أسقط حد السرقة للضرورة التي أجمع المسلمون على اعتبارها وترتب الأحكام عليها تفسير في المعنى والغرض بغاية أن السرقة كانت بغاية حفظ الحياة، وحفظ الحياة مقدم على حفظ المال، ومنع الزكاة عن المؤلفة قلوبهم خلافاً لظاهر النص الذي جعل للمؤلفة قلوبهم سهماً في الزكاة اتقاء لشرهم وتأليفاً لقلوبهم " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب، والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله، والله عليم حكيم".

فرأيه رضي الله عنه مع الإشارة إلى أن هذا المنع يعود إلى أن وصف لا يكون معتبراً إلا عند حاجة الإسلام إلى " المؤلفة قلوبهم" فإذا لم يكن الإسلام بحاجة إليهم، ارتفع الحكم بارتفاع الوصف أي التأليف لأن الله لم يذكر أشخاصاً بأعيانهم إنما ذكر وصفاً وهو التأليف إذن عمر بن الخطاب لم يعطل النص إنما فسره بربط الحكم بالسبب وهو المصلحة والتجديد للفهم فلما ارتفعت المصلحة بعزة الإسلام وقوته وانتشاره وعدم حاجته إلى من يتألف قلوبهم بالزكاة والرعاية لم يستمر في إجراء الحكم، ونحن نرى أن هذا الاجتهاد يدل على مبدأ تغيير الأحكام تبعاً لعللها وهو اجتهاد مبني على الفهم الاجتماعي للنص والذي يمكن أن يتبدل بتدبل الظروف والأحكام لمسايرة الأوضاع والمصلحة العامة استناداً إلى المقولة الأصولية " لا ينكر تبدل الأحكام بتغير الأزمان والأحوال[1].

(١) انتهى النقل بتصرف ص٩٣ .

www.mtenback.com

أوردنا هذه الأمثلة لمشروعية التجديد في الإسلام وأهمية أن ينطلق المسلمون من حاجاتهم ويحرروا المسائل فيها وهو ما يحتاجه حاضر المسلمين في وقتنا هذا .

متى يكون التجديد :

الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها من معنى هذا القول يحسن أن نتحدث عن أن الحاجة إلى التجديد دائمة قائمة وأحوج ما يكون التجديد للتراث في هذا الوقت بالذات وللحقيقة والتاريخ أن الإسلام بتعاليمه من أكثر الأديان والمعتقدات قبولاً للتجديد ومحتاج إليه في كل العصور والأزمان والتجديد لابد أن يقوم على تغيير طرق التفكير وطرق المناهج واليوم هناك جدل طويل بين العلماء المسلمين ينفقون فيه على ضرورة التجديد ويختلفون على موضوعات التجديد وحدوده وأين يتوجهون في فيما يجددون هل التجديد في الأصول أو التجديد في الفروع والمعاني والمدركات التي يحتاج إليها المجددون.

لا شك أن الجميع متفقون على حاجة التجديد وأهميته ولكن وجه الخلاف على موضوعات التجديد ومن أين يبدأ المجددون تجديدهم لأن الجمود واتباع الماضين بلا تجديد نهى عنه القرآن ونعاء على من يفعل ذلك " .

بل نتج ما ألفينا عليه آباؤنا"[1].

ولا شك أن التجديد أصبح ضرورة في هذا العصر، التجديد في كل شيء من شؤون الحياة ومتطلباتها والإسلام يحتوي كل شؤون الحياة ويلبي كل متطلباتها وقد شعر علماء المسلمين وعامتهم بالحاجة الملحة للتجديد في قضاياهم المعاصرة وعقدوا كثيراً من المؤتمرات والندوات في أعوام سابقة وأماكن متعددة والهدف الأول هو تجديد روح

(١)

www.mtenback.com

الإسلام ووظائفه لما جدَّ من شؤون الحياة منذ مئة عام أو تزيد وأكثر ما جدَّ في العالم من القضايا والأمور هي في الواقع جديدة على المسلمين وقليل التعامل معها وكذلك لكيفية التي يمكن أن يصلح التجديد فيها أو يقبل من عامة الناس ولهذا يكون التجديد مبرراً عندما تدعو الحاجات إلى معالجة مهمات وآراء وأحكام وتعاملات طرأت على ثقافة الأمة الإسلامية واحتاج المسلمون فيها إلى حكم الإسلام. وقد كان شأن العلماء المسلمين الأولين النظر للواقعة الجديدة برأي جديد يناسبها ويقوم يحلها وسمو هذا الاجتهاد فيما سموه فقه النوازل أي القضايا الحادثة في كل شيء دون أن يكون لها حكم معروف أو اجتهاد فقهي سابق أو نص غير قابل للتأويل.

ولا أظن أحداً عنده علم ومعرفة لأحوال الناس اليوم وخاصة حال المسلمين إلا ويعرف معرفة نافية للجهالة ما يواجه المسلمون من نوازل وأحداث كبيرة ليس فيها حكم ولا فقه سابق، وكان الطريق الوحيد هو ما فعله عمر ضي الله عنه بفهمه لمقاصد القرآن وغاياته وليس الوقوف الحائر أمام النص إذا اقتضت المصالح الاجتهاد والتجديد الذي يجعل الإسلام دين قوة ومرونة تقدر الضرورات بقدرها وتعمل على توسع شروط الاجتهاد في ما ينوب الناس في أمر معاشهم ولاسيما ما جدَّ من مخترعات كبيرة تتعلق في أصل المنافع المرسلة وليس فيها نص واضح اللقطعية ولا اجتهاد سابق ومعتبر.

وأهم ما يكون فيه التجديد في زمننا زمنا الراهن هو التعاملات مع غير المسلمين والصلات والروابط التي يتوجب القبول بها والأخذ بمضامينها العامة هذه الصلات والروابط تعد لازمة من لوازم التعايش السلمي بين المجتمعات الإنسانية والقبول للعلاقات المهمة بين الناس كافة وهذه العلاقات والصلات لا زال لدى عامة المسلمين موقف متردد حائر في قبولها بسماحة ومودة وتعامل منضبط بضوابط الاسلام العليا التي لا تميز بين الناس إلا أن يكون هناك عدوان ظاهر ولعل الآية الكريمة التي يشيع الكلام عنها

www.mtenback.com

تصلح سنداً لإزالة هذا الحرج النفسي الذي لا زال يقبض صدور بعض العوام من المسلمين ويمنعهم من السماحة نحو غير المسلمين الآية تشير إلى الرابط الأساسي في خلقة الإنسان وكينونته بغض النظر عن دينه أو معتقده حين يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل " وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا" لا يكون لمعرفة الوجه للوجه أو الاسم والسنحة بل التعارف بمعناه العامة هو ما يترتب على التعامل الدائم المستمر والتعايش الذي يبتلي به المتعارفون أحوال بعضهم البعض فمع اختلاف الشعوب والقبائل والتعدد البشري أو ما نسميه في الحاضر المجتمع الإنساني الذي أصبح هو شعار الأمم يلزم معنى الآية.

إن المسلمين مطالبون في هذا الزمن وباعتبار الظروف والأحوال التي يعيشها العالم، مطالبون بالتعامل الحسن مع الناس كافة والتسامح معهم وحسن الخلق وبيان الموقف الإسلامي من الأحكام التي تعامل بها أوائل المسلمين مع غيرهم إذ لا يمكن أن يكون الانقباض والتحيز هو ما يجب أن يتعامل به المسلمون مع غيرهم وكذلك لا يمكن أن تميع شخصية المسلم ليكون بلا موقف ولا رأي ولا تميز ولكن يكون للشخصية المسلمة وجودها ومكانتها وتميز الذات التي لا تنحاز إلا إلى العدل الذي قامت عليه السموات والأرض " اعدلوا هو أقرب للتقوى" فالعدل هنا معنى شامل وقيمة عليا أخلاقية والقسط كذلك قيمة عليا فيما يتعامل به الناس، ولهذا أمر الله الناس " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقو الله إن الله خبير بما تعملون[1].

هذا الطلب من الله للمؤمنين خاصة ولكنه يشمل الناس الذين توجب ظروف الحياة التعامل معهم فإن القسط هو ما يريد الله من المسلمين العمل به مع غيرهم وأن يكون ذلك

(١) سورة النساء، ١٣٥ .

www.mtenback.com

شأنهم في حسن التعامل والعدل والبعد عن الجور والظلم. هذا الحكم في حال القوة والغلبة وهو كذلك في حال التعامل والندية حتى إذا لم يكن للمسلمين قوة ولا غلبة فإن التعامل في العدل شأن ثابت في أي حال يكون عليه المسلم .

واليوم ليس في حال الناس غلبة ولا قوة ولكن في حالهم ظاهر من التعايش وتبادل المنافع والاتجار والاستثمار وهذا ما يوجب التجديد في أشياء كثيرة مما يتوجب على المسلمين وعلمائهم المسلمين البحث عن منطلقات فقهية وأدلة شرعية تجدد معنى التعاون بين الناس وتظهر المصالح التي يحققها التسامح مع الناس كافة ولا شك أن الزمن يوجب اجتهاد في التوعية لأهمية التجديد الذي ينطلق مريدوه ودعاته من معرفة كاملة بالمتغيرات ومعرفة أيضاً بالثوابت من تعاليم الإسلام والتماس الجانب الممكن للتجديد القابل لمتطلبات الحاضر واعتماد والواقعية المدركة لمصالح المسلمين في أنفسهم ومع جيرانهم ومن تربطه صلات العمل معهم والتعامل الحر الذي لا يساوم إلا على مصالح الناس واحترام أعمالهم وتقدير المصالح للجميع.

إن التجديد في نهاية المطاف ضرورة لابد من القيام بها سواء كان هدف التجديد التعامل مع المصالح الخاصة للمسلمين أو المصالح الخاصة للمسلمين والآخرين ولابد أن يكون التجديد يتوخى الحاضر الذي يعيشه البشر كله من حيث مراعاة الواقع الاجتماعي الجديد الذي يتعامل به الناس كافة ويقع المجتمع تحت أنظار الأمم الأخرى وهو ما يمكن أن يصدق عليه مسمى العولمة التي تسود الكرة الأرضية، والناس فيها مكشوفة أعمالهم ومرصودة تعاملاتهم حيث يصبح التعامل مراقباً في كل البلاد فلا يستقل حال من الأحوال عن الدائرة الواسعة التي تجمع ما تفرق من طبائع المجتمعات وتكويناتهم العامة والخاصة.

www.mtenback.com

الإسلام دين صالح للحياة وقادر للتكيف مع الواقع الذي يصلح أمر البشر، ولا يصلح الجمود فيه على فقه زمن مضى أو حقبة من حقب التاريخ والشاهد على قدرة تعاليم الإسلام ومرونتها ثابت في ممارسات المسلمين واجتهاد علماء الإسلام في كل مراحل تطوره وحراكة السريع مع تطور الحياة واستيعاب متغيراتها وقد كان فقهاء المسلمين الأولين قد ضربوا المثل الأعلى والقدرة الفائقة على الفهم لمستجدات الأحوال ومتغيرات السنين وكان من طبيعة الفقه الإسلامي مراعاة المصالح العامة التي تحتاج إلى القبول بما يقيم مصالح الناس ويلبي حاجاتهم الدنيوية .

ولا شك أنه من أولى الواجبات في خضم طوفان التوجه إلى الماديات والتغير الذي يصحب الحياة المعاصرة والاتصال المباشر بين الحضارات أن يقوم علماء الأمة بتأصيل قيم الإسلام العليا مثل التسامح والرحمة والرفق وبالبر وما إلى ذلك من القيم الإنسانية وأن يبرزها في جهود تجديدية معاصرة لتكون بارزة في موروثهم الثقافي حتى تصبح نبعاً ثراً للناشئة ويجد الناس فيها الأسوة والقدوة الحسنة في التعامل الصالح بين البشر.

وحضارتنا الإسلامية من أطول الحضارات الإنسانية ومن أكثرها إرثاً معرفيا وأغناها ثقافة علمية وهي تحتاج إلى عرض موروثها الفكري والأخلاقي والسلوكي وقيمها الاجتماعية الشاملة على منهج عصري مناسب للزمن الراهن ومواكب لتطور الحياة ومتغيرات الأحوال حتى تنشر سماحة التعاليم الإسلامي وتتجاوز الصعوبات التي تعترضها وتحجم دورها الأخلاقي، ولا يكون شيء من ذلك إلا باتباع منهج حديث مجدد ومتجدد يستجيب للحاضر ويصلح للمستقبل ويصب في قالب العصر ويتفاعل مع المحيط الإنساني مسبباً وعياً إسلامياً يدرك ما يريد المسلمون من أنماط التغيير والتحول والتجديد.

www.mtenback.com

فالتجديد ضرورة عصرية وحاجة ماسة للمسلمين تبرز الوجه المضيء لروح الإسلام وتعاليمه وتكشف الغطاء عن ما تحته من مما يخفى على غير أهل العلم.

في مجال يصلح التجديد :

هناك قسمان مما يجب أن يعلمها المرء الأول : العبادات والعبادات رويت بالتواتر ولا مجال لتغيير شيء منها أو تجديدها وهي قليلة ولا يحدث خلاف بين المسلمين في أهم أركان العبادات وشروطها وطريقة أدائها والخلاف بها محدود جداً بين المسلمين.

الثاني المعاملات :

والمعاملات هي المجال الرحب والميدان الواسع للتجديد والتغيير والخلاف أيضاً ولو تتبعنا خطوات العلماء المسلمين والحكام وهل الراي لوجدنا أن باب التجديد واسع مفتوح ولا تمر حقبة من حقب التاريخ الإسلامي إلا يكون للناس فيها حاجة ماسة إلى التجديد ولعل ما نسب لأبي جعفر المنصور وهو يوصي مالكاً بوضع كتاب للناس يتجنب فيه رخص ابن عباس وتشديدات ابن عمر وشواذ ابن مسعود.. يدل على أولى خطوات التجديد في الإسلام والبحث عن حلول تناسب كل عصر من العصور وتأخذ بما يحدث فيه من قضايا تحتاج إلى التجديد مهما كان العصر متقدما في التاريخ ومهما كان التجديد متواضعاً أو سهل وميسر فما بالكم إذا كان حاجة التجديد في زمن كل ما فيه جديد وطارىء على ماضي الأمم وعلى المسلمين خاصة.

إذا نظر المرء إلى تراث الأديان السماوية وتعاملات المؤمنين بها سيجد إحناً وخلافاً بين أتباع هذه الأديان وقد لا يكون لتعاليم الأديان سبباً في ما يحدث بين الأتباع من مشكلات فمصدر تلك الأديان السماوية واحد أنزلها الله لخدمة الإنسان في إصلاح أمر معاشه ومعاده وأمر المؤمنين بها بالرحمة والسماحة والإحسان وسعادة الإنسان لكن أتباع الأديان أو بعضهم هم الذين أوجدوا الخلافات وحرفوا في تعاليم الدين الذي يؤمنون به

www.mtenback.com

فحصل لذلك تنازع كبير بين أتباع تلك الأديان، وكان ذلك الخلاف معنويـًا في التاريخ الماضي عندما كانت تعاليم الأديان أو فقه أتباع الأديان بمعنى أصح يؤخذ به ويتبع حتى العصور المتأخرة حين قامت حركات تحرر عقل المرء من دعوى ومزاعم القسس والرهبان وغيرهم ممن ينحو في تعاليم الدين منحى غير ما أنزل الدين من أجله ثم كانت ثورة المصلحين الاجتماعيين الذين اهتموا بمصالح الناس وأدركوا أن وظيفة الدين وظيفة لصالح الحياة الدنيا مثلما هي لصالح الأخرة والمعاد، وأن التعايش بين الناس لا يحتمل تلك العدوات التي فرضتها عصور من الجهل أو الغلو أو حتى تحقيق المصالح لرجال الدين والسلاطين وهو الحال الذي كان عليه الماضون وعندما أدركت الأمم أن رسالة السماء هي في أصلها الحب للناس والخير لهم وأن مصالح الناس عامة مشتركة ومقدسة جاءت أراء المصلحين متوافقة مع مصالح الناس التي هي غاية الأديان المنزلة من الله فقد قامت الثورات الاصلاحية لاسيما في الغرب على سلطان الكنسية واستبدادها فانعتق المجتمع من تلك الروح الانعزالية التي كانت تسود عصور الظلام بحثوا فيما يمكن أن يجمع الناس ويصلح بينهم فكانت الرسالة الأسمى هي " أن الناس سواسية كأسنان المشط" وهو أثر من أثار الإسلام الذي يشرع العدالة بين أفراد المجتمع دون تمييز، وهذا المبدأ مبدأ أن العدالة والقسط مطلب مهم من مطالب التشريع لاسيما في الإسلام والأديان الأخرى التي تزن أعمالها بحس التعامل والعدل والقسط تجذرت في معارف الاضر فكانت التشريعات العامة اليوم تحاول بسط العدل والقسط في الأمم والدول نعود إلى مواضيع التجديد في تعاليم الإسلام وما الذي يمكن أن يجدد التعامل به وما لا يمكن أن يمسه التجديد.

قلنا إن شأن التعاملات مفتوح للتجديد وأن حال المسلمين اليوم وحال العالم كله يحتاج إلى ما جاء في التنزيل : قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد

www.mtenback.com

إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله.."[1] هذه الآية من سورة آل عمران تقص ما نحن بحاجة إليه اليوم أن يكون التعاون بيننا وبين الناس مأمور به ومدعو إليه وألا يتخذ أحد قوته وغلبته سيفا على رقاب الآخرين ولا سلطاناً يتحكم بهم وإنما يكون التعاون على قضاء المصالح المشتركة ويكون التعاون على إصلاح الأحوال العامة للناس كافة، فالكلمة السواء التي دعت إليها الآية الكريمة هي العدل والقسط والتعامل بالحسنى وهو ما يحتاجه الوقت الحاضر فهل نطمع أن نجد من علماء المسلمين وفقهائهم من ينهض بهمة التجديد في مجال التعاملات والمعاملات ويضع تعاليم الإسلام وسماحته على طريق العمل وبين أيدي الناس كافة.

التعاملات مع غير المسلمين :

معروف أن في التراث الديني نصوص بعض الفقهاء المسلمين تتناول توصيفاً للتعاملات بين المسلمين وغيرهم وفيها الشيء الكثير من ما خلفته عزلة المسلمين في الماضي وانحيازهم إلى نصوص كانت موجباتها وأسبابها قد انتهت في الوقت الحاضر. مثل الحروب وأحكامها والتشريعات التي اجتهد الفقهاء الأولون في تنزيلها على مصالح الناس في تلك الحقبة الزمنية البعيدة وما كان فيه من التعاملات التي يحكمها في الغالب ما يسمى الولاء والبراء عند بعض الفقهاء حيث رتبوا على هذا المبدأ شكلاً من التعاملات وحدودوا بعض الضوابط فحصل وحشة من عوام المسلمين لاسيما التعامل مع غير المسلمين وأُطرَّ هذا النوع من التعامل باطار فقهي واجتهاد مرحلي كانت له أسبابه السياسية والاجتماعية وليست أسباباً دينية فحسب ولاسيماً في المصالح العامة أو ما يسميها الفقهاء المسلمون المصالح المرسلة .

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ .

www.mtenback.com

وفي القديم أقتضى الاستقلال للدولة الإسلامية في أرضها وسلطانها ونوعاً الحكم الذي يسود فيها، وهذا أقتضى تبعاً لتلك العزلة شيئاً من العدواة والحروب بين المسلمين ومن يجاورهم من الأمم الأخرى مما سوع للفقهاء العمل على مفهوم البراءة وعدم المساواة بين المسلم وغير المسلم وانسحب هذا المفهوم على أشياء كثيرة من أنواع التعاملات.

أما اليوم فقد أصبح العالم دولة واحدة أو كما يقال قرية واحدة وأصبح التعامل على الأرض في كل قاراتها تعاملات أممية وصارت الشركات عابرة القارات هي التي يتعامل معها سكان الأرض برُّهم وفاجرهم مسلم وغير مسلم ولم يعد هناك مجال لتخصيص التعامل ولا يمكن أن يجد الإنسان مكاناً معزولاً عن المحيط العالمي الذي يسود الأرض.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه من المسلم به أن يحدث بين الناس تعارف وتآلف وتعامل واتصال دائم في المصالح والمشتركات العامة لاسيما أن المسلمين أصبحوا يشكلون نسبة معتبرة من سكان الدول غير الإسلامية والتعامل مع عامة السكان في أي دولة يعيشون فيها بصفتهم مواطنين في تلك الدول توجب عليهم أي على المسلمين نوعاً من التعامل الحسن والود المتبادل بينهم وبين جيرانهم الذين يساكنونهم، ويجتمعون معهم في الانتماء العام للمواطنة التي تأسست في الدول الغربية والشرقية ودول العالم، وعليها ترتبت حقوق عامة وخاصة ولا يمكن أن يعيش المسلمون بمجتمعاتهم الجديدة بأعراف وقيم المجتمع القديم على أي حال كان إلا أن يكون هناك تسامح وتوافق وتجديد للمفهوم والتعامل فقهياً مع الناس الذين تلزمك الظروف الحاضرة بالتعامل معهم على أي صفة كانوا عليها.

هذا التجديد في بناء صلات تقوم على فهم جديد لطبيعة الزمن الحاضر والاشتراك الإنساني بين الناس بغض النظر عن الاعتقادات التي يعتقدونها أو كانت تعتقدها أسلافهم الأولين. حاجة التجديد هي ما يرنو إليه المسلمون ويطلب من علمائهم وأهل الفقه أن

www.mtenback.com

يجددوا من فقه الحاضر ما يناسب الحال والمعاملات الحديثة وهي كثيرة لاسيماً في القضايا الاجتماعية والاقتصاد والتعايش الدائم المبني على حقوق الإنسان التي نص عليها الدين ففي الأثر الذي يحفظه المسلمون قيمة النفس واحترامها فقد مرت جنازة لغير مسلم على مجلس فيه النبي فقام لها فلما أخبره أصحابه أنها لغير مسلم قال لهم أو ليست نفساً منكراً تمييزهم بين الأنفس معلنا مرمتها وقيمتها وحرمة الدماء والأعراض ولا يكون التجديد في شيء إلا حين تستجلي هذه القضايا وتطرح للمناقشة وتصحح الرؤية التي قد يكون فيها بعض الامتناع أو التحفظ على التعاملات مع غير المسلمين وهذا مقصد من مقاصد الإسلام التي يحس إبرازها والتعامل بها في هذا الوقت خصوصاً أن ما يعانيه المسلمون من عزلة وما يثار حول بعض مواقف المسلمين من التعايش أصبح موضع جدل في الوقت الراهن.

ومن موضوعات التجديد المهمة :

تجديد الحوار الطبيعي مع الأديان وأهلها وبيان المشتركات بين اصحاب الملل وهي كثيرة ووضع ما نص عليه الإسلام موضع الاعتبار وبيانه لمن ليس من المسلمين حتى تصحح النظرة أو الاعتقاد الخاطىء عن المسلمين ويتضح ما يحث عليه الإسلام من حسن الخلق وأمانة التعامل وهو أمر مطلوب في المعاملات خصوصاً احترام قيم الشفافية والبيان وقد جاء الأثر الذي يعمل عليه المسلمون في كثير من أمورهم " من غشنا ليس منا" فضمير المتكلمين في الحديث " ليس منَّا" يدل على من تقتضي الحاجة التعامل معه وليس فقط المسلم مع المسلم .

هذه الأشياء قد تكون غائبة عن الممارسة اليومية مع المسلمين وغيرهم وقد تكون غائبة حتى عن بعض المسلمين في تعاملهم مع الناس إذ لم يعد التعامل محصوراً في جنس

www.mtenback.com

من البشر ولا دين ولا لغة فمن يقتضي التعامل معه الاتصال به ينطبق عليه هذا القول والحديث آنف الذكر.

والتجديد :

إن ما يحتاجه المسلمون في هذا الوقت لتحقيق التجديد وضروراته وما يترتب عليه يحصل في النقاط التالية :

١) الفهم العميق للتحولات التي يمرُّ بها العالم كله واستقرأ ما يصلح للناس ويصلحهم.

٢) التسامح مع الغير وبيان التعاليم الدينية التي تدعو إلى روح التسامح وقيمته الإنسانية وتقبل الواقع الذي لابد من التعامل معه كما هو وليس كما يريد المسلمون.

٣) التجديد في فقه الواقع وتقدير المصالح العامة التي تحدد أهمية البحث عن قواسم مشتركة بين الناس، وتعاليم الإسلام غنية بهذه القواسم ويستطيع المجددون تكييفها للمتطلبات التي يرون ضرورة العمل بها.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك www.mtenback.com

www.mtenback.com